

أ. بيركهارت (١٨١٢م)

ترجمة: أنور عرفات

بعد أن زار بيركهارت بلدة سوف - كما سيمر بنا- وبعض قرى المعراض مثل الكتة، وبرما، والجزاة، ودين... وبعد وصفه الدقيق لليلة أقامها في سوف، قال:
... ولما أصبحت شديد التوق للوصول إلى جرش، فقد غادرت سوف في الصباح الباكر وأخذت معي دليلاً قادي فيما بعد إلى السلط الواقعة على جبل البلقاء، وكانت طريقنا ممتدة على طول الجبل في الجانب الغربي من وادي الدير. وفي الجانب الشرقي من الوادي على بعد ساعة من سوف تقع خربة مقبلة.
وعلى الطريق التي نسلكها على بعد ثلاثة أرباع الساعة من سوف وفوق مدينة جرش المتهدمة، توجد خربة الدير (دير الليات) وفيها مصلى تركي يدعى مزار أبي بكر. وبعد ساعة مررنا بمنحدر الجبل الذي ينحط في اتجاه جرش بمكان يغلب على ظني أنه مقبرة المدينة، وقد عدت فيها ما يزيد على خمسين تابوتاً حجرياً. وهذه التوابيت مصنوعة من الحجر الكلسي الذي تتكون منه جبال الصويت والمعراض. وبعض هذه التوابيت ينخفض إلى مستوى الأرض، ويبدو أن البعض الآخر كان قد أزيل من مواضعه الأصلية. وأكبر هذه التوابيت طوله عشرة أشبار وعرضه ثلاثة أشبار ونصف، ولكن أكثر التوابيت ليست كبيرة بالقدر الذي يكفي لضم جثمان شخص مكتمل النمو. وفي جوانب بعض هذه التوابيت حفرت زخارف من النقش البارز، كجبال من زهور أو أشرطة أو أعلام، أو جان أو عفاريت، وما شابه ذلك. ولكنها في حالة مشوهة لا تلفت النظر بالنسبة لجمال النحت. إلا أنني شاهدت واحداً من هذه التوابيت مزخرفاً على نحو رائع. وجميع هذه التوابيت لها

أغطية منبسطة ما زال بعضها باقياً للآن، وعلى واحد من أكبر التواييت التي صادفتها لأول مرة في طريقي ابتداءً من قرية سوف، نقش خطي طويل، ولكنه مشوه إلى حد لا أتمكن معه من قراءته. وفي الجدران أعداد من الحجارة الكبيرة المربعة وهي من بقايا إحدى البنايات.

جرش:

وبعد ساعة ونصف من سوف وصلنا إلى أسوار مدينة جرش. لقد بنيت جرش فوق تلة مرتفعة في جبل المعراض على أرض غير مستوية من جانبي وادي الدير، الذي يطلق عليه اسم سيل جرش أو نهر جرش، إضافة إلى اسم القيروان. وهذا النهر يصب على مسافة قصيرة من البلد في وادي الزرقاء. ويقوم الجزء الرئيس من المدينة على ضفة النهر اليمنى حيث السطح أكثر استواءً منه في الجانب المقابل. مع أن الضفة اليمنى تعدّ أكثر انحداراً من الضفة الأخرى، إن الخرائب الموجودة حالياً تثبت عظم المدينة القديمة وأهميتها والاسم الحديث يحمل على الاعتقاد بأنها جيراسا القديمة - إحدى مدن ديكابوليس الرئيسة. ويبلغ محيط الخرائب ساعة وربع الساعة تقريباً، وذلك باقتفاء أثر حطام المنزل للأسوار التي كانت سماكتها تربو على أربعين قدماً. وقد بنيت من حجارة مربعة ومتوسطة الحجم. ولم أستطع تقدير ارتفاعها الأصلي لأن القسم الأعلى منها كان في كل مكان مدمراً.

سأعدد الآن الأشياء الغريبة التي تلفت النظر في جرش وفقاً للمخطط الملحق الذي يمكن أن يعطي فكرة عامة عنها جميعاً، ولا أستطيع أن أجزم بدقة هذا المخطط فيما يتعلق بالمسافات لأنني قمت بأعمال المسح خلال أربع ساعات على الأكثر وقد استطعت بصعوبة كبيرة أن أفنع رفاقي الثلاثة بالانتظار هذه المدة، ولم يقبل أحد منهم أن يصحبني عبر هذه الخرائب بسبب خوفهم من البدو الذين اعتادوا التردد على هذا الوادي، ولهذا فقد أخفوا أنفسهم تحت الأشجار التي تظل النهر.

إن أول ما يسترعي الانتباه عند القدوم من سوف وبعد عبور سور البلد هو الهيكل (معبد أرتيميس) جسم هذا الهيكل الرئيس يتألف من ساحة مستطيلة يبلغ طولها من الداخل

خمسة وعشرين خطوة، وعرضها ثمانى عشرة. وهناك صفان من الأعمدة تزدان بهما واجهة الهيكل الأمامية، في كل جانب صف مؤلف من ستة أعمدة. ولا تزال تنتصب حتى الآن خمسة أعمدة من الصف الأول وأربعة من الصف الثاني، كما لا يزال باقياً عمود من كل صف من صفوف الأعمدة التي كانت تحيط بالهيكل من كل جوانبه - في كل جانب صف واحد، باستثناء الواجهة الأمامية. ومن هذه الأحد عشر عموداً لا تزال تسعة تقف كاملة، واثنان بغير تيجان. ونمط هذه الأعمدة المعماري يفوق كثيراً طراز ذلك الصف الكبير من الأعمدة الذي سآتي على ذكره فيما بعد، ويبدو أنه ينتمي إلى الطراز الكورنثي في أزهر عصوره. إذ إن تيجانه مزخرفة على نحو جميل بأوراق الخرشوف، وتتألف كل أسطوانة من خمس أو ست قطع. ويبلغ قطرها سبعة أشبار ونصف الشبر، وارتفاعها يبلغ خمسة وثلاثين إلى أربعين قدماً ولم أستطع التأكد من عدد الأعمدة في جوانب البهو المعمد.

ويقوم الهيكل على دكة اصطناعية ترتفع عن الأرض خمساً أو ست أقدام. ويمتلئ داخل الهيكل بركام السقف. وقد انهار جزء من الجدار الأمامي، إلا أن الجدران في الجوانب الثلاثة الأخرى لا تزال قائمة بكاملها. والجدران جميعها خالية من الزخرفة. وتوجد في كل من الجدارين الجانبيين من الداخل ست كوى غير نافذة ولا مزخرفة تقع عند منتصف الجدار ابتداءً من الأرض. وفي الجدار الخلفي المقابل للباب تجويف معقود، وعلى كل جانب من جوانبه فجوة صغيرة مظلمة، وتمكن رؤية القسم العلوي من كوة غير نافذة في القسم الخارجي من بقايا الجدار الأمامي، مع بعض زخارف بسيطة إلا أنها رائعة النحت.

وهذه الخرائب تقوم ضمن ساحة مستديرة محاطة بصفيين من الأعمدة. ويبدو أن هذه البناية الضخمة بكاملها تفوق في حسن الذوق والفخامة أية بناية عامة أخرى من نوعها في سوريا - باستثناء معبد الشمس في تدمر. وعلى الجانبين من الرواق المعمد الواقع في الساحة لا يزال يقوم كثير من قواعد الأعمدة وأسطواناتها المكسرة في صف الأعمدة

الداخلي، إلا أنه لا يوجد غير عدد قليل منها على الجانبين الآخرين، ويبلغ قطر كل من هذه الأعمدة ثلاثة أشبار ونصف الشبر.



وعلى الجانب الطويل يمكن اقتفاء آثار أربعين عموداً كانت تنتصب على بعد ثلاث خطوات بعضها من بعض، وعلى الجانب الطويل المقابل لا يزال ينتصب عمود واحد بكامله وعلى الجانب القصير لا تزال ثلاثة من هذه الأعمدة في الصف الخارجي إلا أنها تخلو من التيجان. أما أعمدة الزوايا في هذه الساحة المستديرة فكانت مزدوجة ومنحوتة على شكل قلب. ولم يبق من صف الأعمدة الخارجي المحيطة بالساحة الكبيرة المستديرة إلا النزر اليسير. ويمكن الشك فيما إذا كان يوجد أي صف خارجي مقابل القسم الخلفي من الهيكل، حيث الأرض وعرة وغير مستوية. إن الأعمدة التي كانت تزدان بها القلعة ومنطقتها في الأصل لم تكن تقل عن مئتي عمود أو مئتين وخمسين.

وفي السير باتجاه الغرب من الخرائب التي وصفت أعلاه، عبر بقايا مساكن خاصة وعلى بعد مئتي ياردة منها توجد بقايا الهيكل مع ثلاثة أعمدة كورنثية لا تزال منتصبة هناك. ويؤدي شارع لا يزال بعضه مبلطاً من هناك، في اتجاه جنوبي غربي، إلى بقعة فيها عدة أعمدة صغيرة محطمة ملقاة على الأرض.

وبالالتفاف من هناك في اتجاه جنوبي شرقي دخلت شارعاً مزداناً بأساطين على الجانبين، وما زالت تنتصب هناك حتى الآن ثلاثون أسطوانة مكسرة وعمودان بغير تاجيهما. ومقابل هذه الأعمدة في الجانب الآخر من الشارع توجد خمسة أعمدة بتيجانها

وعوارضها وهذه الأعمدة صغيرة نسبياً وليس لها قواعد، كما أن أحجامها مختلفة، ويبلغ أكثرها ارتفاعاً خمسة عشر قدماً تقريباً. ويغلب على نحت الأعمدة فساد الذوق. ولا بد أنه كان في الأصل حوالي خمسين عموداً في هذا الشارع. وعلى بعد مسافة قصيرة لجهة الجنوب الشرقي يتقاطع هذا الشارع مع الشارع الرئيس في البلدة.

وحيث يلتقي الشارعان توجد أربع كتل من الحجارة الكبيرة المكعبة وتحتل كل كتلة إحدى زوايا التقاطع، على نحو ما شاهدته في شبها وربما كان الغرض منها تقليد قواعد التماثيل الجميلة الكائنة وسط الرواق الكبير في تدمر. ويبلغ ارتفاع كل من هذه المكعبات حوالي سبع أقدام وعرضه ثمانية عشر شبراً تقريباً. وفي كل جانب من جوانبه كوة صغيرة غير نافذة. وما زالت ثلاثة من هذه المكعبات قائمة بكاملها، إلا أن الرابع أصبح حطاماً. ويمكن أن تكون هذه المكعبات قد استعملت كقواعد للتماثيل، أو ربما تدعم قبة صغيرة قائمة على أعمدة انتصب تحتها تمثال كما هي الحال بالنسبة لأعمدة تدمر. وقد حاولت أن أنفحص أعالي المكعبات، إلا أنها كانت جميعها مغطاة على نحو كثيف بشجيرات لم يكن في استطاعتي إزالتها. ولم يكن أثر يدل على أن هناك تماثيل كانت تنتصب على القواعد الكائنة في شبها.



الموقع كما شاهده بيركهاردت

وفي تتبعي للشارع الكبير وفي اتجاه جنوبي غربي، وصلت ثانية إلى بقايا الأعمدة التي كانت تنتصب على الجانبين. وهذه الأعمدة أكبر بكثير من سابقتها، كما أن الشارع الذي ما زالت بعض أجزاء أرصفته باقية للآن كان أعرض بكثير من الشارع السابق. وعلى الجانب الأيمن من الشارع ينتصب سبعة عشر عموداً كورنثياً، يتحد ستة عشر عموداً منها بعوارضها المشتركة. وهذه الأعمدة تختلف في الحجم ولا تماثل في ارتفاعها الأعمدة المقابلة أو الكائنة في نفس صفها. وهذه الحالة، بالإضافة لطرز التيجان، تدل على أن الشارع الطويل خليط من إنشاءات إضافية أنجزت في أوقات مختلفة، وأنها أحدث بناء من الهيكل نفسه. ويبلغ ارتفاع بعض الأعمدة ثلاثين قدماً بينما يبلغ ارتفاع البعض الآخر خمساً وعشرين. وقد قدرت أقصرها بعشرين قدماً، وعوارضها التي تستند عليها مزخرفة قليلاً بنقوش من النوع البارز. وحيثما ينتصب عمود مرتفع قرب عمود آخر أقصر منه، فإن العارضة الكائنة فوق هذا الأخير تستند على سناد بارزة داخلة في إسطوانة العمود الأطوال. وبمواصلة السير في الشارع في نفس الاتجاه الجنوبي الغربي يلي ما تقدم في الجهة اليمنى عمود منعزل، وثلاثة أعمدة كبيرة بعوارضها متصلة بأربعة أعمدة أخرى أصغر منها بالطريقة التي وصفت آنفاً. ثم يلي ذلك عمودان، فخمسة أعمدة، فعمودان، وجميعها مع عوارضها وإذا عدنا الأعمدة في الجانب الأيمن من الشارع ابتداءً من المكعبات نجد أنها تبلغ أربعة وثلاثين عموداً ما زالت منتصبة. وعلى الجانب الأيسر، مقابل الأعمدة الثلاثة الكبيرة المتصلة بالأربعة الأخرى التي تصغرها، توجد خمسة أعمدة متوسطة الحجم مع عوارضها المستندة عليها، وعمود كبير منفرد، إلا أن أغلب الأعمدة في هذا الشارع قد سقطت، وهي الآن ملقاة على الأرض، وفي بعض الأماكن خلف الأساطين الواقعة في الجانب الأيمن توجد غرفة منخفضة بعضها معقود، ويبدو أنها كانت حوانيت وهذه الحوانيت تشبه تلك التي شاهدتها في الشارع الطويل في السويداء في جبل الدروز.

والشارع الطويل الذي وصف آنفًا ينتهي بفسحة واسعة مكشوفة محاط بنصف دائرة فخمة من الأعمدة في صف واحد، ولا يزال سبعة وخمسون عموداً منها منتصباً وربما كان هناك في الأصل ثمانون عموداً. وفي الجانب الأيسر توجد خمسة أعمدة فسبعة فعشرون، مع عوارضها المستندة عليها أيضاً. والعشرون الأخيرة أطول من الأعمدة الأخرى، لأن الأرض التي تنتصب فوقها أكثر انخفاضاً من غيرها وتتطلب زيادة ارتفاع الأعمدة لجعل عوارضها المستندة عليها فوق الفسحة نصف الدائرية على نفس المستوى. ويبلغ ارتفاع كل عمود من الأعمدة الواقعة قرب المدخل حوالي خمس عشرة قدماً، وقطره قدماً ونصف القدم وجميع هذه الأعمدة منحوتة على الطراز الأيوني، وهي بهذا تختلف عن جميع الأعمدة الأخرى المتبقية في المدينة. ويبلغ نصف قطر الدائرة عند متابعة اتجاه الشارع الطويل مئة وخمس خطوات.

وتوجد عدة أحواض عند طرف نصف الدائرة مقابل الشارع الطويل. ويبدو أن هذه الأحواض كانت خزانات للمياه، ولا تزال تشهد بقايا قناة مبنية فوق قنطرة مائية، ويرجح أن هذه القناة كانت تزود الخزانات بالماء. وعن اليمين والشمال توجد بعض الحجرات المنخفضة الأقواس.

وترتفع الأرض عند هذه البقعة، وعند صعود تل يقع أمامي، وجدت على قمته بقايا هيكل جميل يشرف على القسم الأكبر من البلدة. وواجهة الهيكل الأمامية لا تقوم مقابل الشارع الطويل والساحة العامة مباشرة ولكنها تنحرف قليلاً لجهة الشمال.

ومثل الهيكل الذي وصفناه سابقاً كانت مزدانة ببهو معمد على الطراز الكورنثي. ولم يبق من أعمدته سوى عامود واحد من الزاوية الجنوبية. وفي الجهة الأمامية صفان من الأعمدة، في كل صف ثمانية كما أظن. ويبدو أنها كانت قد طرحت أرضاً بتأثير هزة أرضية، وكثير منها ما زال للآن عند منحدر تل بنفس النظام الذي كانت تنتصب فيه في الأصل.

ويبلغ قطر الواحد من هذه الأعمدة ستة أشبار ونصف وقد بدت لي تيجانها أكثر دقة في الصنع من مثيلاتها في الهيكل الكبير.



إن الحجر الذي بنيت به مدينة جرش هو من النوع الكلسي الذي يمتاز بصلابته لا يستهان بها. وهو من ذات الصخر الذي تتكون منه الجبال المجاورة. ولم أر أي حجر من نوع آخر استعمل في البناء. ومما يثير الدهشة أن لا تكون هنا أية أعمدة من حجر الجرانيت بينما تكثر مثل هذه الأعمدة في مدن سوريا التي لا تقل عن جرش شهرة وفخامة.